عقيدة المطهر عند الكاثوليك

لحضرة الخوري الفاضل بطرس عقل الماروني

انَّ الكاثوليكيين يفتتحون شهر تشرين الثاني برفع بصائرهم الى السماء فينبطون اعضاء الكنيسة المنتصرة على ما نالوه من سعادة لا يحيط بها وصف ولا يتمتع بها من كان قيدَ عقابٍ توجهُ عليه ادنى الزلّات وهم لا يذهلون عن اسعاف اخوة لهم يقاسون عذاباً مبرّحاً وفاء للعدل الالهي فبعد قضائهم العجب من حظّ آل النعيم يتقاطرون الى الكنائس والمقابر ضارعين اليه تعالى ان يتغمّد برضوانه من مسَّتهم يدُ عدله. وقد احببتُ بهذه النسبة ان ابيّن لقرّاء المشرق الحجج التي تضطرنا نحن الكاثوليك على اعتقاد هذه الحقيقة فعسى كلامي يقع في اذهانهم موقعاً حسناً وينبّه غيرهم الى حقيقة راهنة ليس في قبولها من مناص اذا ما بحثوا عنها بقلبٍ متجرّد عن الاغراض كلفٍ بالحق

يفهم الكاثوليك بالمطهر محلاً موقّتاً يجعل الله فيه نفوس الصالحين الذين ماتوا دون ان يفوا تماماً لعدله تعالى ليكفّروا عمّا لحق بهم من الزلّات الخفيفة او من تبعات الخطايا المغفورة. وهو اسم يطابق المسمّى لانَّ في المطهر تُطهَّر النفوس من ادرانها كما يُمحص الذهب بالنار وان جاز ان يُدعى باسماء اخرى

انَّ الاعتقاد بالمطهر لأقدم عهداً من النصرانية اذ ورد ذكرهُ في العهد القديم لا بل نرى له اثرًا عند الوثنيين انفسهم وقد دلّنا اليه تيرجيل زعيم الشعراء اللاتينيين قال: اذا ما تخلّصت النفوس من قيودها أُكرهت على الارتقاء بعقاب مديد عمّا لحق بها من صدإ الحديد. وقد بيّن افلاطون انَّ النفس التابعة الشقاء تتالهُ في عالم آخر بمكابدة الآلام. وكذلك افلاطون قد افرز في كتابه « فيدون » بين عقاب كبار المجرمين الخلّد والعقاب الموقت للذين ارتكبوا هفواتٍ خفيفةً. وقد وصف شعراء اليونان احوالاً لموتاهم يُستنتج منها اعتقادهم بمكان كانوا يزلون فيه تكفيرًا للالهة قبل ارتقائهم الى النعيم وليست تلك التقاليد عمّا يُستخف بها فانها من الحقائق التي اورثها الاولون قبل توغّلهم في ارجاس الوثنية والوثنية كما لا يخفى كانت تشمل عدّة حقائق اخذتها من التقليد الراقي الى الوحي الاول وهي لم تختلق الّا ما كان مؤاتياً للاهواء الجيئة

وما اثبتهُ التقليد القديم عند الوثنيين وغيرهم يؤيده العقل الصائب . كل يعلم انَّ بين الخطايا التي يرتكبها الانسان فرقاً عظيماً وانَّ منها ما يستوجب عند الله كما في المحاكم البشرية عقاباً شديداً كالقتل والزنى وما اشبههما ومنها على خلاف ذلك ما لا يستوجب قصاصاً الَّا خفيفاً كصغار الذنوب واللمم التي يأتيها البعض استخفافاً او جهلاً . مثال ذلك كذبٌ خفيف او سرقة شيءٍ لا يعبأ بهِ . افترى من عدل الله ان يعاقب هذه الصغائر كما يقتضي من تلك الجرائم الثقيلة لا لعمري فانَّ العقل نفسهُ دون الوحي يحكم بانَّ الذنب الخفيف يعاقب بقصاص يناسبهُ والذنب العظيم يجازى بمثلهِ من العقاب . وهكذا يصنع البشر وبين عدلهم وعدل الله بونٌ لا يُقاس . وان قيل انَّ النفوس المقترفة لمثل هذه الصغائر تدخل الى السماء دون عقاب اجبنا انَّ الكتاب المقدَّس ينكر انَّ شيئاً دنساً يمكنهُ دخول السماء حيث كل شيءٍ طاهر . وان قيل انَّ الله يتجاوز عن هذه الصغائر برحمتهِ قلنا انَّ الله قد خصَّ هذه الحياة بالرحمة امَّا الآخرة فهي للعدل . وعدلهُ تعالى يقتضي عقاب المجرم وان كان ذنبهُ خفيفاً فلا يليق بقدسية رب العرش ان يقيم بازائهِ من كان ماوثاً بادنى عيب ويخلَّ بعدلهِ التعدّي على شريعته دون وفاء . والَّا لكان من يؤثر الموت على اقترافهِ ادنى زلَّة ومن يتعمَّد ارتكاب الخطايا العرضية مستهيناً بها يدركان الملكوت دون قيام فرق في سرعة نوالهِ . ولا يجهل ابن الكنيسة ان النفس التي تشين بها الخطيئة العرضية لا تزال حائزة على نعمة التبرير فيسعى في هذه الحالة هلاكها ولا يسعها معها الحصول على السعادة التي قوامها مشاهدتهُ تعالى وكيف يتسنى لها ذلك قبل تطهيرها من كل وصمة الخطيئة فالخير على مقتضى المبدأ الفلسفي عن علة كاملة والشر عن كل نقص . فما دام في النفس أثر للخطيئة يتعذر عليها التمتع بالله الخير الكامل . هذا ما يبينهُ العقل الراجح . الَّا انَّ في الاسفار المقدَّسة حججاً وضعيَّة مقرَّرة

قد اتى في سفر المكابيين الثاني ان يهوذا المكابي جمع الفي درهم من الفضة وارسلها الى اورشليم ليقدَّم بها ذبيحة عن انفس من صُرعوا من جنوده في معمعة القتال وقد استحسن الكتاب عملهُ فصرَّح بان فعلهُ كان من احسن الصنيع واتقاه وانهُ رأي مقدس تقوي (١ . وقد ازداد الامر وضوحاً بما اضاف فقال : ولهذا قدَّم الكفارة ليُحلُّوا من الخطية . فصحَّ انَّ من الخطايا ما يُكفَّر عنها بعد الموت والَّا لجاء كلام الله لغواً تعالى

١) ف ١٢ ع ٤٣

الحق سبحانه عن ذلك. وليس مكان الوفاء السماء لخلوّها من العذاب وليس الجحيم لديمومتها فلا بدَّ اذن من موضع ثالث بينهما ولا خلاف في اي اسم نطلقهُ عليه

ولعلَّ البعض ينكرون حجَّتنا مدعين ان سفري المكابيين ليسا في عداد الاسفار المقدسة. فنجيبهم ان الكنيسة اعلم بما استُودعته من الكتب المنزلة أمن الصواب ان تُنبَذ تعاليمها ظهريًا ويُذعن لرأي حديث لا يدعمهُ برهان

وزد على ذلك ان الكنائس الشرقية كلها تتَّفق في القول بقانونيَّة سفري المكابيين وكذلك قد افاد القديس اغوسطينوس ان الكنيسة الكاثوليكية قد تزَّلت ذينك السفرين منزلة سائر الاسفار الالهية (١ وقد اعترف بالامر جميع آباء مجمع قرطجنة الثالث الذي انعقد سنة ٣٩٧ (٢ وهؤلاء اقرب عهدًا الى رسل المسيح وهم اجدر من المتأخرين في ابائنا عن اعتقاد الاولين. ثمَّ ان البابا اينوشنسيوس الاول وكان اجله سنة ٤٠٢ قد احصى سفري المكابيين من جملة الاسفار المنزلة ذلك لمَّا استطلعهُ فيها اكسوپار اسقف تولوز (٣ ومما يؤيد ما نحن بصدده ان بطريرك الارمن اليعاقبة سلَّم الركيزدي نواتال سفير فرنسة في القسطنطينية خطًا موقَّعًا عليه منهُ ومن كثيرين من اساقفته ومن سائر الاكليروس فيه ينبذون رأي القائلين بعدم قانونية سفري المكابيين ولسفار طوبيا ويهوديت والحكمة وابن سيراخ وباروخ. وقد قرَّر البطريرك مكاريوس سنة ١٦٧١ ان الروم الغير المتحدين مع رومية ينظمون في عداد الكتب المقدسة سفري المكابيين. والكتابتان محفوظتان في مكتبة دير سان جرمان دي پري

اما العهد الجديد فنعثر فيه على غير آية اثباتًا لحقيقة المطهر فقد اشار اليه المسيح لاسمه السجود في ما يلي قال الحق سبحانهُ في الانجيل الطاهر: «من قال كلمةً في ابن البشر يُغفر لهُ واما من قال على الروح القدس فلا يُغفر لهُ لا في هذا الدهر ولا في الآتي (٤ ». فلو لم يكن من المآثم ما يُكفَّر عنها بعد الموت لكان تصير المسيح منافيًا للحق لما فيهِ من الدلالة على ان لبعض الخطايا مغفرة في الدهر الآتي فهب مثلًا انهُ جاء

١) راجع الكتاب ١٨ من مدينة الله ف ٣٦
٢) راجع مجمع قرطجنة الثالث ف ٤٨
٣) اينوشنسيوس الى اكسوپار ف ٧
٤) متى ف ١٢ ع ٣٢

في قانون بعض الدول « ان كذا جرماً لا يتجاوز عنهُ ولا بعد مكابدة الاشغال الشاقة مدة عشرين سنة » أفلا يفيد هذا انَّ القول من الجرائم ما يُصفح عنها عند انقضاء ذلك الوقت فلا بدَّ اذن من موضع يُنال فيهِ العفو عن بعض الخطايا بعد انحرام حبل الحياة الفانية ولا ازيدكم علماً انَّ ذلك الامر لا يتمّ وقوعهُ في الجحيم وليست ناريها للتطهير ولا في السماء اذ لا يدخلها شيءٌ نجس (١ . وقد استخرج من ذلك الدينَ الالهي الحجّة نفسها القديس اغوسطينوس (٢ والقديس غريغوريوس الكبير (٣ وغيرهم كثيرون ممن يرجع الى قولهم

ولنأتِ على ذكر عبارة اخرى للاستاذ الالهي تدعم ما اخذتُ على نفسي بيانهُ قال تعالى اسمهُ في المديون الذي لم يُرضِ خصمهُ فزُجَّ في السجن : « الحق اقول لك انك لا تخرج من هناك حتى توفي اخر فلس (٤ » فان ذلك السجن الذي يترتَّب على ذلك المديون ان يودع فيهِ ليس هو في هذه الدنيا لانَّ همَّ الفادي الالهي مقصور كلهُ على ما وراء الموت فانَّ جميع اعمالهِ وكلامهِ غايتها تملكنا الحياة الابدية ولم نرَه فاه بلفظة تحذيرًا لنا مما يشقّ علينا في هذا العالم بل ارشدنا الى الاستخفاف بمكارههِ . وكيف ينطبق كلام المسيح على سجن دنيوي كثيرًا ما يتملَّص منهُ السجين غير وافٍ ما عليهِ اما هربًا اما بطريقة اخرى . ولا يراد بهِ الجحيم لتعذُّر الوفاء فيه فلا مندوحة اذن من مكان في الاخرة يفي فيهِ للعدل الالهي من مات مقيدًا بديون لا تستوجب ابدية جهنم . ولم يرَ القديس قبريانوس في ذلك الفلس خلافًا ما اتينا على بيانهِ قال : « ليس سواء عدمُ الخروج من السجن قبل وفاء آخر فلس ونوالُ الثواب عن الايمان والفضيلة على اثر الممات (٥ » . وقد كتب ترتليانوس انهُ يُراد بالسجن المعبَّر عنهُ في الانجيل الاماكن السفلية وبآخر فلس الهفوات الصغيرة التي ينبغي الوفاء عنها (٦

ولنستفتِ رسول الامم في حقيقة المطهر نرَ ان من المؤمنين من يخلصون بعد

---

١) رؤيا ف ٢١ ع ٢٧
٢) الكتاب ٢١ في مدينة الله ف ٢٤
٣) الكتاب الرابع من محاوراته ف ٣٩
٤) متى ف ٥ ع ٢٦
٥) الكتاب الرابع الرسالة الثانية من طبعة فرويين
٦) في كتابهِ في النفس

عبورهم في النار قال (كور ٣: ١٥): «ومن احترق عملُهُ فسيخسرُ الّا انهُ سيخلص ولكن كما يخلص من يمرّ في النار» فيكابد عذاباً عظيماً شأن من احدق به اللهيب من كل جهة فلا يفلت الّا وادركهُ مضض الحريق وانما اولئك هم الذين اتخذوا المسيح لهم اساساً وبنوا عليه خشباً او حشيشاً او تبناً». وقد المع الرسول في ذلك الى المسيحيين الذين يلبثون متّحدين بالمسيح بالايمان والمحبة لكنهم يشوّهون انفسهم بما هو اشبه شيء بالحشيش والتبن فيلزم ان يُحرق. وتبيَّن من تعبير الرسول ان تلك النار تلقاهم فورَ أجلهم جزاء عملهم الذي سيظهره يوم الرب (١ كور ٣: ١٣). ولا غروَ ان يوم الرب الحساب الذي يقع حال انفصال النفس عن الجسد. وقد اعتقد القديس اغوسطينوس (١ ان القديس بولس نظر في ما ذكرناه من كلامهِ الى الطهر قال: يُستخنُ بتلك النار لما قيل عن خلاص من يمرّ فيها لكنها تربو عذاباً على كل ما يمكن احتمالهُ في هذه الحياة. وقد فسّر تلك الآية على ما سبق بيانهُ القديس امبروسيوس (٢ والقديس ايرونيموس والقديس غريغوريوس الكبير (٣

تلك حجج راهنة جديرة ان يتزلها العاقل منزلة الاعتبار. وهب ايها اللبيب المشرئبّ الى ضياء الحق ان المسيح والرسل لم يفوهوا ببنت شفة اثباتاً لوجود المطهر وهل عثرتَ لهم على ما ينقضهُ وقد كان اليهود جريئاً على تقاليد ابائهم يذكرون موتاهم بالصلوات والتقادم تكفيراً عن خطاياهم فلمَ لم يردعهم الحقّ سبحانهُ؟ لِمَ لم ينادِ تلاميذه على رؤوس الاشهاد ببطلان تذكارهم للموتى؟ هل امتنعوا عن ذلك حذراً من مكروه يوقعونهُ بهم وهم لم يرهبوهم في امرٍ ولم يحبسوا لسانهم صدعاً بالحق مع ما كانوا يتوقعونهُ من المحن والعذابات؟ . وان خالج فكرك ريبٌ في ما رويتُهُ عن اليهود فلا تتحرّج من استقراء ذلك من نفس قيامهم عليه في ايامنا. فانهُ من المحال ادبيًّا ان يكونوا اخذوا عن النصارى ما يلحق بدينهم وهم عندهم الدّ اعدائهم

لقد تبيَّن من الكتب المنزلة صدق الاذعان باقتضاص العدل الالهي عند مزايلة دار الفناء من مختاريهِ الذين لم يفرغوا من الوفاء لهُ عمّا يترتب عليهم. وقد اتت التقاليد البيعية

١) في شرح المزمور ٣٧ مجلد ٨ من طبعة فروبين
٢) في المزمور ١١٨
٣) الكتاب الرابع من المحاورات ف ٣٦

مصداقاً على ذلك ولمّا كنّا ذكرنا بعض اباء الكنيسة في معرض بيان النصوص المقدّسة التي استشهدنا بها فنجتزئ بما قلّ من اقوالهم توخّياً للايجاز قال العلّامة ترتليانوس: « اننا كل سنة نقدم التقادم عن انفس الموتى (١) . وقد كتب القديس يوحنا فم الذهب ان الرسل قرّروا وجوب ذكر الموتى في الاسرار الرهبية (٢) . وانّ القديس ايرونيموس قد اثنى على پاكيوس السريّ الروماني لايثاره توزيع الصدقات عن نفس امرأته على نثر الزهور على نعشها (٣) . وارسل القديس امبروسيوس كتاباً لفوستينوس يؤاسيه في مصابه بشقيقته فاعلن لهُ وجوب الصلاة من اجلها (٤) . وقد صرّح القديس غريغوريوس اللاهوتي كما رواه القديس توما شمس الدارس بان الكنيسة الجامعة تصلّي من اجل الموتى ليُحلّوا من خطاياهم

واذا ما نُظر الى الامر بنظر النـاقد البصير المترفع عن التعصب أليست الجامع العامة احقّ ان تتّخذها دستوراً نابذين وراء ظهورنا ما يماكسها من آراء افراد ليس لهم صلاحيّة ان يأتوا بالقول الفاصل في المسائل الدينية ؟ فان آباء المجمع الفلورنتيني المؤلف من الكنيستين الشرقيّة والغربيّة وقد حضره البطريرك القسطنطيني اثبتوا ان الانفس التي تبارح الدنيـا برئة من الخطيئة المميتة ولم تنب كل الوفاء عمّا اقترفتهُ لا بدّ من تطهيرها في العالم الآتي . وقد قرّر المجمع التريدنتيني ان الكنيسة داومت في كل زمان على التعليم بوجود المطهر . وقد اعترف بمواقفة التقاليد على تلك الحقيقة كلفين وكثيرون من انصار الاصلاح المزعوم منهم بنغام وكرانمر . وقد سلّم غيرهم من البروتستانت بمكان للتطهير منهم بلانكفور وبارو والفيلسوف الشهير لبنيتس

واماّ الكتب الليتورجية عند سائر الطوائف الكاثوليكية وعند اقدم المنفصلين عن رومة فجميعها تستعطفهُ تعالى على انفس المرتى . ومنها الليتورجية اليونانية فان اخوتنا الروم لا يزالون يرتلون قائلين: « ايها السيد المسيح نجّ من العقوبات الذين انتقلوا

---

١) في كتاب اكليل الجندي ف ٣ ع ٣

٢) في الميمر الثالث من شروحهِ على رسالة القديس بولس الى اهل فيلبي

٣) في رسالتهِ ٥٤ لپاكيوس

٤) في رسالتهِ ٤٩ لفوستينوس

عنّا » (١ . ولا غروَ ان ليس مدار الكلام عن العقوبات الجهنمية فانهم يعتقدون بديمومتها . فمن اين تأتي لجميع الكتائس الشرقية على اختلاف نزعاتها ان دُوّن في كتبها القديمة العهد الاقرار بمكان تُسعف فيه الاموات ؟ أنسّت فيها الاحبار الرومانيون ذلك التعليم او احدثهُ المنفصلون ؟ فانَّ تعذُّر الامرين لا يحتاج الى برهان وهل يختلقون او يثبتون ما يناقض رأيهم . فوجب اذن انهم تناقلوها على مـا كانت وقت تخلفهم عن وحدة النصرانية

هذا ما رأيت تحريره عن عقيدة المطهر وقد حداني الى ذلك حبُّ الحقيقـة التي استودعها المسيح كنيستهُ المعصومة ضرورة من الزلل في تعليمها واني رغبةً في خلاص النفوس المفتداة بالدم الكريم اعرض ما سطرتهُ على عقول لا ترضى عن الحق بدلًا وعلى قلوب تبتغي نوال ما لاجله تجسّد ابن الله فهو تعالى المسؤول ان يضم الاخوة المنفصلين في حظيرة واحدة امين

سياحة حديثة الى جهات اوربة

للاب لويس شيخو اليسوعي

قد اضحت اوربة مطمحاً لابصار كثيرين من اهل بلادنا فيقصدونها حيناً بعد حين ترويحاً للبال او ترويجاً للاعمال فاذا عادوا الى مسقط رأسهم افاضوا في ذكر العجائب التي شاهدوها . وقد عهد الينا في الشهور الاخيرة من نيطت بهم زمام امرنا بان نذهب في معيّة بعض طلبة مدرستنا الكليّة من اعيان العجم فنصحبهم الى بلجيكة ليتمموا فيها دروسهم . فبعد عودتنا طلب الينا الاصحاب بان نسطّر في المشرق اخبار رحلتنا فاجبنا الى طلبهم بطيب الخاطر . وليست غايتنا من تحبيرها استيفاء وصف البلاد التي طفنا فيها بل تدوين اخبار سياحتنا على اسلوب للتجوّل المسرع الذي لا يسمح لهُ قصر الوقت بالفحص المدقّق وانّما يأخذ من كل شيْ ما قرب جناه ودنا متناولهُ

(١ في سحر السبت من اللحن السابع